مجلة الدراسات الفقهية والقضائية • مجلد: 06، عدد: 02 (2020م) • ص ص35 – 52
EISSN 2588-2481 - ISSN 2477-9806

مدرسة مازونة الفقهية

Mazoonah School of Fiqh

بقلم
أ. د. محمد السعيد عقيب *
جامعة الوادي ـ الجزائر
maguieb@yahoo.fr

ملخص

تبحث هذه الورقة في نشأة المدرسة الفقهية بمازونة، والعلماء الذين حرصوا على تعزيز مكانة هذا المذهب وتطوره والأسباب المساعدة على ذلك، كما تتطرق إلى بعض أعلام هذه المدرسة وجهودهم واجتهاداتهم الفقهية، وكذا أهمية ومآثر هذه المدرسة.

الكلمات المفتاحية: مازونة؛ المدرسة؛ الفقه؛ المالكية؛ الجزائر.

Abstract

This paper examines the genesis of the Jurisprudence school in Mazona. It examines the emergence of the Jurisprudence school in Mazona, the scholars who were keen to enhance the status of this doctrine, its development, and the reasons to help in that. It also addresses some of the jurists of this school and their jurisprudence efforts, as well as the importance of this school.

Keywords: Mazoona, The school; Jurisprudence; Malikism; Algeria.

* المؤلف المراسل.

مقدمة

عرف المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (1236- 1554) وبعده العهد العثماني، حركة فكرية وعلمية نشيطة، جسدها العلماء الذين سخروا أنفسهم لخدمة العلم والدين، متخذين العديد من الأماكن والمناطق كحواضر لدراسة العلوم وتدريسها، ومنارا للتفاعل والمشاركة بين مختلف الأقطار المشرقية والمغربية، وحتى الأوربية وإفريقيا جنوب الصحراء، ومن بين هذه الحواضر "مازونة"، التي زارها العديد من العلماء وطلبة العلم والرحالة.

خاصة وأن الساحة الثقافية والعلمية في الغرب الجزائري خلال العهد العثماني اشتهرت بمركزين هامين هما: "الراشدية" وحاضرتها معسكر، و"مازونة" ومدرستها الفقهية التي برزت بصورة كبيرة بعد أفول نجم تلمسان بسبب ما عاشته من أوضاع غير مستقرة على الصعيد السياسي، من كثرة الغزوات والفتن خلال القرنين الخامس والسادس عشر.

ورغم أن الوضع الثقافي في الجزائر خلال العهد العثماني اتسم على العموم بالجمود والتقليد – رغم ما بذله بعض العلماء الأندلسيين وغيرهم - بدل التحديث والتطور والازدهار، إلا أن مازونة يمكن القول عنها أنها كانت مستثناة من هذا الوصف خلال القرون 15 - 18م.

وبرزت مازونة في كونها عاصمة لبايلك الغرب عند إقرار التقسيم الإداري في إيالة الجزائر من جهة، وزادت شهرتها مع الزمن وتطورت من خلال مدرستها الفقهية.

فما هي قيمة المساهمة التي قدمتها هاته المدرسة لخدمة المذهب المالكي؟. ومن هم أشهر مدرسيها وتلامذتها؟ وما هي الآثار التي تركوها في الفقه وغيره من مختلف العلوم؟

سنعالج في هذه المداخلة وفق النقاط التالية:

- التعريف بمدينة مازونة.
- مدرسة مازونة: تأسيسها، طرق التعليم فيها ومناهجها الدراسية والمشايخ

الذين درسوا بها والتخصصات التي برعوا فيها.

- نموذج لمشايخ مازونة الشيخ: يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى بن يحي المغيلي المازوني وآثاره.

- الخاتمة.

1- التعريف بمدينة مازونة:

تضاربت المصادر التاريخية في ضبط تسمية المدينة، فورد في دليل الحيران[1]: « أم مازونة هي اسم لقبيلة ماسون – Mazun- وحسب إحدى الأبحاث[2] فإن اسم المدينة مشتق من كلمة "مزنة – Mazna – " أو موزونة – Mouzouna - أو ماطا –Mata - أو "زونا – Zouna-».

ويرجع تاريخ تأسيس المدينة حسب أحد الرحالة[3] إلى العهد الروماني بدليل العثور على آثار وقطع نقدية رومانية بالمنطقة.

وهو ما يؤكده ليون الأفريقي حيث يقول:« وهي مدينة أزلية بناها الرومان، حسب قول بعضهم على بعد نحو أربعين ميلا من البحر، تمتد على مسافة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة...لقد كانت المدينة متحضرة جدا في القديم لكنها كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إما نساجون أو فلاحون، وجميعهم تقريبا فقراء لأن الأعراب يثقلون كواهلهم بالآتاوات والأراضي المزروعة تعطي غلة حسنة، ويشاهد بقرب المدينة أماكن خربة مما كان بناه الرومان، لا تحمل أي اسم معروف لدينا، مما يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام، ولم يذكرها قط مؤرخونا الأفارقة»[4].

ولو أن فلونشي– Florenchie– حسب أحد الباحثين[5] نفى وجود البقايا الأثرية الرومانية بين شلف وتنس، وأن المدينة مصورة على مجموعة من الخطوط المنصبة في دفعات وطرقات أثناء السير إلى شلف ومنه إلى تنس، ثم إلى

الأصنام.

بينما أفاد صاحب الترجمانة الكبرى[6] أن المدينة قد أسسها أمير بني راشد عام ستين ومائة 160هـ / 776م، بينما أفاد ابن خلدون[7] أنها أسست من طرف أبو منديل عبد الرحمن زعيم مغراوة في القرن 6هـ /12م، وذكر الإدريسي[8] أن المدينة كانت موجودة قبل الإسلام بحوالي بضعة قرون.

يؤكد على ذلك أبو راس الناصري بقوله: « ثم سافرت لمازونة مدينة مغراوة بناها منديل عبد الرحمن منهم أوائل القرن السادس »[9]

وتصف الرحلة[10] مدينة مازونة بأنها:« مجموعة مقطوعة من بعض جهاتها بحرف واد منقطع شبه قلعة، ولكنها واهية حسنا ومعنى، وليس بها ما يتعرض لذكره البتة».

وهو وصف يفتقر إلى دقة التفاصيل، فنجد هاينريش فون مالتسان[11] يقدر عدد سكانها بين الألفين وثلاثة آلاف، ويؤكد بأنها على درجة من العمران.

وعن أحياء المدينة تذكر إحدى الدراسات[12]، حي أولاد سايح في الشمال تقطنه بعض العناصر العربية، وحي بوماتا في الشرق، وحي تايساري في الجنوب يسكنه أصحاب الحرف والتجار، وحي القصبة في الغرب وهو الحي القديم.

ولقد تمتعت مدينة مازونة بموقع استراتيجي هام في قلب جبال الظهرة[13] إلى البحر[14]، وعلى قرى وادي شلف:«عليه قرى عامرة يفيض كما يفيض نيل مصر»[15].

ويصفها المؤرخ الإدريسي بقوله:« ويلي حوض فروج في البر ومع الشرق مدينة مازونة على ستة أميال من البحر وهي مدينة بين أجبل في أسفل خندق، ولها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة، ولسوقها يوم معلوم، يجتمع فيه أصناف من البربر بضروب الفواكه والألبان، والسمن والعسل كثير بها، وهي من أحسن البلاد صفة، وأكثرها فواكه وخصبا»[16].

وتوفرت المدينة على ثروة مائية هامة متكونة من أودية وعيون، إذ تذكر إحدى الدراسات: عين تنسري[17]، وعيد الذهب[18]، وعين تامدة[19]، وعين

قدور[20]، إضافة إلى مياه وادي الشلف، واعتمد الإنتاج الفلاحي على الزراعة والرعي بالدرجة الأولى[21].

ومن بين الذين اهتموا بدراسة تاريخ هذه الحاضر مولاي بلحميسي، الذي وصفها بأنها بلدة عريقة عتيقة أسست في قلب جبال الظهرة منذ الزمان في موقع متميز، وافر المياه، كثير الغابات متحصن يراقب الطريق بين الشرق والغرب، ولهذا كله اهتم بها حكام المغرب عبر العصور حتى مستها حروب لا تكاد تنتهي، فعانت من الصراع والنزاع أيام ملوك إفريقية والمرابطين والموحدين وبني زيان أصحاب تلمسان، ثم أتراك الجزائر الذين أنشأوا بها بايلك لهم في غرب البلاد[22]

2- **المدرسة الفقهية بمازونة**:

لقد بنى أحد المهاجرين الأندلسيين مدرسة مازونة المشهورة، التي تخرج منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني، وهو محمد بن الشارف البولداوي، وظلت هذه المدرسة محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة إلى معسكر[23].

وتأسست مدرسة مازونة أواخر القرن العاشر[24].ولقد عمدت هذه المدرسة بمسجدها على أنه جزء منه سنة 1029هـ/ على يد سيدي محمد بن الشارف و درس هذا الأخير 64 سنة إلى أن توفي سنة 1164 هـ / وخلفه نجله الذي ترك هذا الأخير خلفه ابنه محمد أبو طالب عبد الرحمن(1103هـ-1233هـ) وابنه سيدي هني، فالمدرسة مازالت تحتفظ بالجزء الثاني من صحيح مسلم كمخطوط أهداه الباي عثمان سنة 1212هـ لشيخ المدرسة، كما أنها لازالت تحتفظ بخزانة من المخطوطات الثمينة الأصلية منها ستة أجزاء كبيرة الحجم لشرح صحيح البخاري ومسلم، كما أنها لازالت تحتفظ على مقعد أثري تركي قديم[25].

وقد كانت على درجة كبيرة من الأهمية في النواحي الغربية من البلاد، وكان لها نظام، راسخ وتقاليد متينة استمدتها من صلتها بالتعليم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى، وهي أيضا من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني،

وقد اشتهرت بالخصوص في الفقه والحديث وعلم الكلام، واستمرت المدرسة تشع بالمعرفة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران، وكانت مقصد طلاب النواحي الغربية، ولاسيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران، ومن أبرز خريجيها أبو راس الناصري الذي تحدث عن شيوخه فيها في رحلته " فتح الإله "[26].

وظاهرة التعليم في الزوايا ليست بالريف، ففي المدن أيضا كانت بعض الزوايا تقوم بدور إيجابي في نشر التعليم بجميع مستوياته، ومن الزوايا التي لعبت دورا رئيسيا في نشر التعليم زاوية مازونة ذات الشهرة الواسعة[27].

3- طرق التعليم ومناهج الدراسة:

يلتحق الطالب بالمدرسة ليتابع دراسته المتوسطة والثانوية، فإذا كان فقيرا أو قادما من مكان بعيد أعطي سكنا في الزاوية المعدة لاستقبال الطلبة الفقراء والغرباء، وقد لا يجد السكن في الزاوية ولكنه يجد فيها الطعام، كما أنه قد لا يجد فيها الطعام وإنما يجد السكن، لأن كل ذلك خاضع لنصوص الوقف وإمكانياته، وخاضع أيضا لإمكانيات الزواية من هدايا الناس إليها ومداخيلها، ومن عادة الطلبة أنهم لا يدرسون في مدنهم أو جهاتهم بل يبتعدون عن مواطنهم فيقصدون المساجد، والزوايا البعيدة التي اشتهر فيها بعض المدرسين أو اشتهرت هي بأنها قد أخرجت عددا من العلماء مثل مدرسة مازونة[28].

اشتهرت مدرسة مازونة بالفقه المالكي منذ القرن الرابع عشر، واهتمت زواياها بتدريس المذاهب الصوفية.وقامت طرق التحصيل العلمي على الحفظ والاستظهار إذ كان الشيوخ والطلبة يتنافسون على رواية الشروح والمتون، فالغاية من التعليم دينية – اجتماعية يقصد بها تقوية الأيمان وترسيخ الأخلاق الكريمة[29].

ومدرسة مازونة اشتهرت بالفقه المالكي، وكل شيخ من شيوخها تخصص في باب من أبوابه، إلى جانب ذلك، اضطلعت زوايا الإقليم منذ انتصار التصوف خلال القرن السادس عشر، بمهام تدريس المذاهب الصوفية، فالثقافة المحلية

تقليدية ذات بعدين فقهي – لغوي وصوفي واتجاهاتها تعليمية أساسا، يعود ذلك إلى عاملين رئيسيين: النزعة الأصولية المرتكزة على تقليد السلف: " إذ لا يكون المتأخر أعلم من الأول"، فمواد التدريس كانت تنحصر في رواية الحواشي والشروح والمختصرات التي وضعت على المصادر كمختصر خليل في الفقه المالكي وألفية ابن مالك في النحو وصحيح البخاري في الحديث والعقيدة الصغرى (أم إبراهيم) في أصول الدين وسلّم الأخضري في المنطق[30].

وكانت طرائق التحصيل السائدة تعتمد على النقل والرواية والحفظ ولا تشجع ملكات النقد والتجديد لدى الطلبة والشيوخ على السواء، فالغاية من التعليم في نظر الفقهاء دينية – أخلاقية يقصد بها تتميم الدين وتقوية الإيمان، فمن الكتاب إلى الجامع كان الحفظ والاستظهار، جوهر التعليم وكان الشيوخ والطلبة يتنافسون على رواية المصادر كالقرآن والحديث والمختصرات في شتى العلوم، وحتى العلوم العقلية كالمنطق والحساب، فكانت تدون في صيغة قصائد شعرية ليسهل على الطالب حفظها وروايتها، ويقول أبو راس في هذا الصدد : « شأن العلم أن يحفظ»[31].

وكان التدريس يتم في المسجد أو الزاوية على شكل حلقة الطلبة حول شيخهم يروي عليهم الدرس أو ينقله من كتاب، ولم يكن نظام التقويم يعتمد على الامتحانات بل يهدف إلى اختبار ذاكرة الطالب ومثابرته في شتى العلوم التي يتلقاها، فالطالب يختار المواد التي يدرسها وتنتهي الدراسة حين يتلقى من شيخه "الإجازة" التي تؤهله إلى تدريس ما حفظه من مختصرات وأبواب في الفقه وغيره. ولم يكن هذا النظام التعليمي تابعا للدولة، خاضعا كليا لأهدافها بل كان قائما على تلبية أغراض ووظائف نابعة من المجتمع، وإذ كانت الدولة تستفيد من بعض الكتبة والفقهاء في إدارة شؤونها، فإن ذلك لم يكن يخرج عن نطاق المسعى الاجتماعي العام[32].

ومن أجل أن تؤدي المدرسة دورها التعليمي على أحسن وجه خلال هذا العهد وفرت لها الإمكانيات فاشتملت على قاعات لمجالس المحاضرات وأماكن لإقامة الطلبة وعيّن فيها المدرسون المشرفون على المكتبات الملحقة. كما وقفت عليها عدة مصادر مالية من قبل ميسوري الحال، وحبست الكتب والمصاحف

خدمة لرواد المدرسة.

أما طرق التدريس فتعتمد الإلقاء والإملاء، واختيار كتاب معين من العلوم وشرحه، حيث يقوم طالب من الطلاب بقراءة نص من الكتب المشهورة، وبعد ذلك يقوم الأستاذ بتولي عملية الشرح وتبسيط ما ورد من المفردات الصعبة، وهناك طريقة المحاورة التي ترتكز على التحليل والتعليل والمحاورة وابتعادها عن أساليب الحفظ والاستظهار، وقد شكل الطالب في هذه الطريقة النواة المحورية التي يعول عليها في الوصول إلى حل هذه القضايا في حين يكتفي الشيخ بتوجيه المناظرة وإدارتها[33].

4- المشايخ المدرسين بمازونة : تخصصاتهم وآثارهم.

اشتهرت مازونة منذ القدم بمدرستها الدينية المتخصصة في الدراسات الفقهية، كما أنها عرفت بكثرة مجالسها ونجابة طلبتها وقريحة أشياخها، ولعل أهم شيوخها محمد أبو طالب بن عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الشارف المازوني، الذي أعطى دفعا قويا لمدرسة مازونة الفقهية ومنهم كذلك محمد بن علي السنوسي، ومنهم من حاضر فيها ودرس بها أمثال:

- الشيخ القطب المشهور سيدي محمد الميسوم.
- الشيخ الكتاني – مدرس بمدينة فاس المغربية-.
- الشيخ بلغيث والشيخ بسودة المغربي« وغيرهم كثيرون، حيث منهم من هو من قسنطينة ووجدة، وندرومة وتلمسان والغزوات....».
- الشيخ محمد بن إبراهيم في الفقه المالكي.
- الشيخ مصطفى بن يونس في الفقه.
- الشيخ البدالي في الفرائض.
- الشيخ محمد بن عبد القادر في القضاء والشهادات والأحكام، ويعد هذا الشيخ من أجل قضاة مازونة.

- والشيخ أحمد بن نافلة في تحقيق الصرف وبيوع الآجال.

- والشيخ موسى بن عيسى صاحب (ديباجة الافتخار) و(حلية المسافر)، وابنه يحي صاحب (الدرر المكنونة) في النوازل.

- الشيخ الكتاني (مدرس بمدينة فاس).

وهكذا فلكل شيخ من شيوخ المدرسة باب من أبواب الفقه وحسب تخصصه، (فمنهم من عمد على شرح مختصر الخليل، ومنهم من عمل على القضاء والأحكام، والبعض الآخر اشتغل على الفرائض) [34].

ومن مدرسي التصوف بمازونة الشيخ موسى بن يحي المازوني صاحب "ديباجة الافتخار في مناقب الأولياء الأخيار "، والشيخ الصباغ القلعي صاحب "بستان الأزهار" وأبي عبد الله المغوفل صاحب " الفلك الكواكبي"[35].

5- الشيخ أبو زكريا يحي بن موسى بن عيسى بن يحي المغيلي المازوني :

ويعد من بين أشهر علماء مازونة، فهو صاحب " الدرر المكنونة في نوازل مازونة".

أ- اسمه ونسبه:

هو يحي بن أبي عمران موسى بن عيسى بن يحي المغيلي المازوني، وكنيته أبو زكريا، ونسبته المغيلي، وعرف بالمازوني، كان أبوه أبو عمران قاضيا وفقيها بمازونة.

وينسب إلى قبيلة مغيلة البترية، وهي إحدى بطون قبيلة زناتة، ومغيلة: بطن من بطون فاتن، الذين كانوا مستقرين بجبل سوفجج ومواطنها بمواطن مغراوة. وقد استقرت قبيلة مغيلة بالتحديد من مصب نهر الشلف، حتى ضواحي مازونة، وكان موقفها بين تأييد أصحاب تلمسان ومناوأتهم[36].

ولقد ساهمت العديد من العوامل في نبوغه، وعلمه منها: البيئة العلمية والثقافية، والبلدة التي عاش فيها، واستعداده الفطري وحرصه على طلب العلم، وقد توفي سنة 883هـ/ 1478م.[37].

ب- مكانته العلمية وشهادة العلماء له:

وظف يحي المازوني مكانته العلمية والدينية في تعامله مع المحيط القبلي، ومن خلال استقرار مصنفه، وما كتبه مترجموه، يمكن تلمس بعض الملامح التي تؤكد مكانة الشيخ.

كشفت مقدمة مصنفه عن جلوسه للتدريس والإقراء، حيث جاء فيها قوله: «مما يقع لي مع الأصحاب في المذاكرات، أو في مجلس الإقراء، من إشكال في كلام ابن الحاجب، أو شراحه». وهو ما تؤكده إحدى التقاريض، من أنه يقرئ ويفيد[38].

أما المتن فقد أثبت سعة إطلاعه على كتب العلماء، وخاصة المالكية من متقدميهم ومتأخريهم، ويظهر ذلك في جمعه الواسع لأقوال العلماء في المسائل التي يوردها وموازنته بينها، واختياره الراجح منها.وفي التراجم، ما يفيد توليه قضاء بلدة مازونة باتفاق، باستثناء ما جاء في إحدى نوازله أنه تولى قضاء تنس[39].

ومن مواقف إنكاره لحالات الغصب والتعدي، ما جاء في سؤال وجهه لشيخه أبو الفضل قاسم العقباني: « يا سيدي تعلم أن بلادنا كثيرة الباطل والغصوبات، يطلب الإنسان فيها لم يجب عليه، ويحبس فيه، فيلجئه إلى معاملة في سلعه يدفعها للظالم يفك بها نفسه، ثم إذا طالبه معاملة في السلعة يثمنها يدعي القهر في ذلك والضغط، فهل يا سيدي أن أتقلد الحكم بالشاذ في هذه المسألة»[40].

ومن القرائن التي تنهض دليلا على مكانته العلمية، ثناء شيوخه عليه، جاء في مصنفه عن شيخه أبن العباس في آخر جواب عن سؤال أورده عليه: «والسلام الكريم عليكم أيها العلامة المفيد، المتفنن، المجيد، والمقدم في النظار، والمستخرج الجواهر النفيسة، من أقصى لجج البحار، ورحمة الله تعالى وبركاته»[41].

وقال عنه أيضا: «بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقد وقف على مخاطبكم المشرفة، ومباحثكم الرائعة المرفقة، زادكم الله من فضله وأكثر للمسلمين أمثالكم، يمنه وطوله»[42].

وقال فيه شيخه أبو مرزوق الحفيد: « أيها البحر الزخار، وبقية العلماء النظار في تلكم الأصقاع والقفار، ولولا وجودكم مثلكم فيها لخلت تلك الديار، وصارت إلى ما صارت إليه جهاتها كالقفار» [43].

وقال فيه شيخه أبو الفضل محمد بن أحمد العقباني في صدر جواب عن سؤال كاتبه به: «الحمد لله أطال الله بقاءك يا نعم الفاضل المفيد، وأدام توفيقك لنظر الصالح السديد» [44].

وقال في حقه تلميذه الونشريسي: « القاضي، العالم، المُجيد، المُفيد، الجامع، الشامل، الحافل، الكامل، المُشار إليه في سماء المعالي بالأنامل، الصدر الأوحد، العلامة النضَار، ذو الخلال السُنيَّة، لمكاتبة الأكابر، وسنِّي الخصال، شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدُنا ومولانا وبركة بلادنا أبو زكريا سيدي يحي ابن الشيخ الفقيه أبو عمران سيدي موسى». وعنه قال قرينه محمد بن قاسم الرصَّاع، في معرض الجواب عن أسئلة كاتبه بها: « تأملت الأسئلة الواردة من قلب سليم الدالة، على حصول طلب العلم والتعليم، أبقى الله سائلها محلا لابتداء الفوائد، ومعدنا لتحصيل الفرائد» [45].

ج- مؤلفاته:

لم يعرف للشيخ أبو زكريا يحي المازوني – حسب مصادر ترجمته- غير مصنفه «الدرر المكنونة في نوازل مازونة»، وهو على وجه الدقة في الضبط عند جل مترجميه، من أفضل المصنفات.

ورغم أن يحي المازوني لم يؤلف كتابه " الدرر المكنونة في نوازل مازونة " لكي يكون كتابا سياسيا فإنه ضمنه من قضايا العصر وفتاوى الفقهاء أو النوازل ما يكشف عن الحياة السياسية والاقتصادية في الغرب الجزائري، وخصوصا ضعف الدولة الزيانية، وكان المازوني قد عاش في ظل ملوك هذه الدولة، وشهد خلال ذلك، على جانب ضعف البناء الداخلي للدولة وعلاقتها بالسكان، هجمات الحفصيين المتكررة ضد الزيانيين تلك الهجمات التي وصلت إلى عاصمتهم تلمسان، ومن هذا الكتاب يمكننا الحكم على ضعف بني مرين أيضا، لأن

المازوني قد أكثر من النقل عن علماء وسط وشرق الجزائر وتونس، (مدينة الجزائر، والقيروان، تونس)، بدل النقل عن علماء فاس عاصمة المرينيين، كما قد يدل على ذلك اتجاه الدراسة والبحث نحو المشرق، حسبما لاحظ الباحثون، وقد كانت القضايا التي تحدث عنها المازوني معبرة عن روح العصر، فالنوازل تدور حول مشاكل سياسية واجتماعية خطيرة كان مجتمع القرن التاسع عشر يعاني منها، ومن ذلك اللصوصية، والظلم والغصب والضرار وتهريب السلاح والمصادمات الجماعية والأوبئة والمجاعات ونحوها، وهي الدوافع التي أرغمت الناس على مغادرة منازلهم وأوطانهم فالحروب والغارات لم تسمح للفلاحين بالقيام بزراعة الأرض وتوفير الإنتاج، وانعدام الأمن وتراخي قبضة السلطان جعلت الناس يفتقدون العدل في الحكم ويعتمدون على أنفسهم في نيل حقوقهم، وهكذا أصبح العلماء والقضاة حسب نوازل المازوني هم الذين يقومون بالسهر على تنفيذ القانون، وأنَّى لهم ذلك في مجتمع يسوده الفساد والاضطراب[46].

د- وصف المؤلف وأهميته:

هو كتاب في جزأين، الجزء الأول يتكون من 512 ورقة، وكل ورقة تتكون من وجه، وظهر تحت 1335- حسب نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر-.

والجزء الثاني يتكون من 190 ورقة، وكل ورقة تتكون من وجه وظهر. تحت رقم 1336- حسب نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر-.

ويشتمل على أربعة أقسام:

الأول: خاص بالنكاح.

الثاني: كتاب الضرر والخصومات والدعاوى.

الثالث: خاص بالوصية.

الرابع: كتاب الجامع.

ويعتبر من الكتب التراثية ذات الاتجاه الشرعي التي تعالج موضوعا وهو

الفتاوى والمسائل الفقهية الخاصة ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، وهو من المصادر الفقهية التي تنسب إلى الفقه المالكي، رفقة المعيار للونشريسي خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، وهو ما جعله من المصادر الأساسية للفقه خلال هذه الفترة، ويضم مجموعة كبيرة من النوازل والفتاوى، وهي مفيدة في مجال البحوث والدراسات التاريخية والإسلامية.

وقد تنبه إلى أهميته المستشرق الفرنسي جاك بيرك، وكرس أكثر من دراسة لهذا الكتاب[47].

وكان تلميذه أحمد بن يحي الونشريسي قد أخذ منه عند فراره من الملك الزياني أثناء إقامته في مازونة، وكتب عليه إجازته وتقريظه، حيث يذكر فيه: «...وبعد فإني لما طالعت السفر الثاني على أرمزة الأنكحة والبيوع من التأليف الجامع المطبوع المفيد هذا على أول ورقة منه المترجم بالدرر المكنونة في نوازل مازونة جمع الفقيه الشيخ...أبي زكريا سيدي يحي..» وكان هذا قبل رحيله إلى المغرب الأقصى، ويؤلف كتابه المعيار الذي زوده ببعض فتاوى شيخه المازوني[48].

وله قيمة فقهية، فقد اشتمل على حوالي ستين بابا فقهيا، وزع عليها فتاوى علماء القرن التاسع في الغرب الإسلامي، وجعلها في كتاب واحد، وهذا يعد مرجعا مهما للقضاة والمفتين في تنزيل أحكام كثيرة من النوازل والقضايا المستجدة على ما شابهها من نوازل سبق فيها حكم وقضاء.

وقد اعتمد عليه كثير من العلماء في باب الفتوى على مذهب مالك، وذلك بشهادة صاحب الطليحية- محمد بن أبي القاسم الفلالي- عند حديثه عن الكتب المعتمدة في الفتوى على مذهب الإمام مالك بقوله:

واعتمدوا الطرر لابن الأعرج *** و طرر الطنجي غير بهـرج

واعـتـمـدوا نـوازل الهلالي *** ودره النـثيـر كـالـلآلـئ

كذاك ما يعـزى إلى مازونـة *** وهو المسمى الدرر المكنونة[49].

ولقد اعتمد المازوني في مادة سفره على عدد من الكتب المتوفرة لديه،

والروايات التي انتهت إليه، فبالنسبة للمسائل المتقدمة عن عصره اعتمد فيها على مصنفات الفقه المالكي، وفتاوى من سبقه، أما بالنسبة للمسائل التي كان قريبا منها وعاصرها، فقد اعتمد فيها على الفتاوى الشفوية، التي سمعها من شيوخه أو التي كان حاضرا في مجالسها، أو التي راسل بها العلماء والفقهاء في مختلف ربوع المغرب الإسلامي، ووجد ضالته في خزانة قاضي مازونة والده، الذي تتلمذ عليه، وكانت مكتبته غنية جمعت العديد من كتب الفقه والفتوى التي جمعتها أسرته منذ فترة طويلة[50].

ويجد المتفحص عددا كبيرا من الفتاوى، هي على شكل أسئلة وأجوبة، وفي أسلوب رسائل، وصيغة خطابات بين السائل والمجيب، فالمسائل موضوعات ووقائع شغلت بال المغاربة، وردت على الفقهاء والعلماء والقضاة والمشاورين، تأتيهم من عامة المسلمين، وحتى من الأمراء وأعوانهم، ومن العلماء أنفسهم وطلبتهم، وهي تحمل أسماء المستفتين وصفاتهم، والمسائل التي وردت في كتاب الدرر، كانت تأتي من ربوع المغرب الإسلامي، وحملت عبارات تقديرية واحتراما بين السائل والمجيب[51].

إن طريقة المازوني في وضعه لكتاب " الدرر " تمثلت في تصنيف المادة التي يريد نقلها حسب أبواب الفقه مع ذكر أسماء المفتين، ولإثبات نصوص الأسئلة كما صدرت عن أصحابها، حتى ولو كانوا محدودي الثقافة، دون التدخل في تصحيحها، وتكرر الفتاوى أحيانا في الدرر، بنص السؤال والجواب لاشتمال الفتوى المتكررة على مسائل تتعلق بأبواب فقهية متعددة[52].

وهذا الكتاب ثري بالعديد من القضايا التي تعبر لنا عن واقع الحياة داخل المجتمع المغاربي، في أواخر العصر الوسيط.

6- **الخاتمة**:

اتضح لنا مما سبق بأن مدرسة مازونة قد لعبت إلى جانب عدد من المدراس والزوايا بالمدن الأخرى كتلمسان وبجاية والمدية ومعسكر وقسنطينة دورا هاما أواخر العصر الوسيط، ومع مطلع العصر الحديث.

وعرفت مازونة بعدد من الفقهاء كغيرها من المدن وضمت عددا من المساجد والمدارس والزوايا والأضرحة ونحو ذلك.

وتخصصت مدرسة مازونة في الفقه المالكي، وساهم في تدريسه وترسيخه عدد من العلماء الذين اشتهرت بهم مازونة، وعلى رأسهم الشيخ أبو زكريا يحي بن موسى بن عيسى، ووالده موسى بن عيسى صاحب تأليف في النوازل والقضاء أيضا سماه «الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق». والذي اشتهر بالقضاء والفتوى.

هكذا كانت مدينة مازونة خلال القرن الخامس عشر الميلادي حتى القرن الثامن عشر قبلة للكثير من الطلبة والعلماء للنهل من معين علمائها وشيوخها.

وازدادت أهمية هذه المدرسة وشهدت تطورا مع الزمن، وممن تولاها الفقيه العارف محمد بن علي الشارف المازوني في بداية القرن الحادي عشر الهجري، وقام بالتدريس فيها حتى وفاته، ثم تجدد تطور المدرسة على يد الشيخ أبو طالب محمد بن علي، في بداية القرن الثاني عشر الهجري، ثم خلفه على المدرسة أخوان من أبرز تلامذة المدرسة هما: الشيخ محمد بن هني وشقيقه الشيخ عبد الرحمن بن هني.

أما أشهر طلبة هذه المدرسة فهو الفقيه العالم محمد أبوراس الناصر المعسكري المولود عام 1150هـ/1737م – 1238 هـ /1823م) الذي ترك ثروة فقهية وتاريخية علمية كبيرة من المؤلفات والمخطوطات، فترك آثارا قدرت بـ : مائة وستة وثلاثين مخطوطة بين قصيرة وطويلة. ولم يطبع منها إلا اثنان تقريبا هما: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، وتضمن سيرة وحياة أبي راس الذاتية والعلمية، حققه ونشره محمد ابن عبد الكريم بالجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب- سنة 1990م، والكتاب الثاني: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، قدمه وحققه محمد غالم، وطبع الجزء الأول منه ضمن منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، سنة 2005، وكان قد طبع مترجمًا إلى الفرنسية من طرف السيد أرنو.نشر كاملا عام 1885م، بعد أن نشره على

حلقات في المجلة الإفريقية.

ـ الهوامش:

1- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق /تع المهدي البوعبدلي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 2007، ص55.

2 -Moulay Belhamissi, Mazouna : une petite ville une longue histoire , Alger,SNED, 1981,p13.

3 -Marmol Carvjal, Description général de africa, Paris, 1976, p254.

4- حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج2، 1983، ص36.

5 -op.cit, p28. Moulay Belhamissi,

6- الزياني أبو القاسم، الترجامنة الكبرى، تح: عبد الكريم الفيلالي، د.م، 1967، ص48.

7 - عبد الرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج7، ص – ص 87-88.

8- الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نقله وحققه محمد حاج صادق، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 72.

9 - أبو راس محمد الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح /محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص20.

10- العبدري أبو عبد الله محمد، الرحلة المغربية، تح/ محمد الفاسي، الرباط، جامعة محمد الخامس، 1968، ص28. نقلا عن: بركات إسماعيل، « تحقيق مخطوط: الدرر المكنونة في نوازل مازونة»، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، تحت إشراف: د/ عبد العزيز فيلالي، جامعة قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، السنة الجامعية 2010/2009، ص125.

11- هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال أفريقيا، تر/ أبو العيد دودو، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ج1، 1976، ص231..

12 -op.cit, p19. Moulay Belhamissi,

13 - Ibid, p13..

14- بركات إسماعيل، المرجع السابق، ص126.

15- نفسه.

16- الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نقله وحققه محمد حاج صادق، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص ص 128-129.

17- عين تنسري: مصدر مائي يحمل اسم بربري يعطي من 10 إلى 12 لتر في الثانية، به حوضان مخزنان، ويتسع على طول " 8م، وعرض 4م، بعمق 3م، وقد تم تحديدها في الفترة الإسلامية.

- انظر: الطاهر جنان، مازونة عاصمة الظهرة، ط1، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص30.

18- عين الذهب: تقع شمال غرب مازونة، كانت تعطي 10 لترات في الثانية، وكانت مصدرا هاما في سقي البساتين وتزويد السكان بالماء عن طريق السواقي والأودية، انظر، الطاهر جنان، المرجع السابق، ص – ص30-31.

19- تبين حسب بعض الآثار المنقوشة أنها موجودة منذ عهد الرومان، انظر، الطاهر جنان، المرجع السابق، ص31.

20- تقع في المدينة وتصب في وادي الشلف، انظر: الطاهر جنان، المرجع السابق، ص31.

21 -op.cit, p39. Moulay Belhamissi,

22- مولاي بالحميسي، دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن 15م/20م، محاضرات الموسم الثقافي 1999/1998، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ص01.

23 - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص183.

24- سعد الله، ج1، ص280.

25 -(سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، ص ص 42-43).

26 - سعد الله، ج1، ص285.

27 نفس المرجع، ص269.

28- نفس المرجع، ص343.

29- محمد بن أحمد أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تق/تح محمد غالم، ج1، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، ج1، 2005، ص9

30- نفس المصدر، ص - ص12- 13.

- وضعت الحواشي والشروح على مصادر العلوم الشرعية، ففي التفسير وضعت الحواشي على تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية- المعتمدة في غريس وبلاد المغرب، وعلى مختصر خليل في الفقه المالكي دون ابن حجاب، وعلى الغنية للقلصادي في الفرائض، وعلى العقيدة الصغرى دون غيرها في التوحيد الأشعري، وعلى صحيح البخاري و دلائل الخيرات في الحديث وعلى ألفية ابن مالك في النحو، مثل : شرح المكودي، وعلى سلّم

الأخضري في المنطق.

31 - محمد بن أحمد أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص 13.

32 - نفس المصدر.

33-_مبخوت بودواية ومحمد بوشقيف، «المدرسة ونظام التعليم بالمغرب الأوسط خلال القرنين 9/8 هـ -15/14 م»، مجلة الفسطاط الإلكترونية 2012/01/17.

34- محمد بن أحمد أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص 14.

35- نفس المصدر، ص16.

36 - بركات إسماعيل، « تحقيق مخطوط: الدرر المكنونة في نوازل مازونة»، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، تحت إشراف: د/ عبد العزيز فيلالي، جامعة قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، السنة الجامعية 2010/2009، ص– ص 129-132.

37- نس المرجع، ص – ص 133-135.

38- نفس المرجع، ص137.

39- نفس المرجع، ص138.

40- نفسه.

41- نفسه.

42-نفسه.

43- نفسه.

44- نفسه.

45- نفس المرجع، ص139.

46- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، ص- ص 42-43.

47- نور الدين غرداوي، « مازونة مركزا للفقه المالكي في العصر الزياني من خلال مخطوط : الدرر المكنونة في نوازل مازونة للمازوني»، مجلة دراسات تراثية، العدد01، 2007.

48- نفس المرجع، ص49.

49- نفسه، ص50.

50- مولاي بالحميسي، دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية والثقافية من القرن 15م/20م، محاضرات الموسم الثقافي 1999/1998، الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ص – ص 02-03.

51- نور الدين غرداوي، المرجع السابق، ص 51.

52- نفسه.